***حوليات جامعة بشار***
***Annales de l'Université de Bechar***
العدد ***N° 5, 2009, 5***
ISSN : 1112-6604

# سيميائية اللون في رواية :سوناتا لأشباح القدس

**أ.د . محمد تحريشي_ و ا.عائشة عياشي**
جامعة بشار

<< سوناتا لأشباح القدس>> نص فرح يحكي عن أدق أوجاعنا، نص مفعم بالموسيقى و الألوان، ، كتب ليخفي وجه الهزيمة و الانكسار المر، نص كتب في عام الرماد، عام القطيعة ، الغربة، النفي ، وإن كتب الرجوع منه يبقى يلازم الروح نبدة أزلية لا يمحوها الغفران.

أدرك واسيني، كما ذهب إلى ذلك الدكتور تحريشي في دراسته لرواية << سيدة المقام>> أن اختيار الكلمات و تحميلها بدلالات فنية و جمالية يعطي للنص قدرة على الإيحاء لتقول الألم من دون تواطؤ مع القتلة أو المدافعين عنهم ( 1) ومع هذا فهو نص يحتلا فيه واسيني علينا كقراء.....يجدبنا إليه بلغة الفن الناعمة.....فنتأنس ثم .....تخشن هذه اللغة، و تخرج لها أنياب ن فيصارعنا النص و نصارعه .....ثم نردخ في استسلام غريب لنص يعذبنا لأنه يذكرنا بكل ما نحاول نسيانه أو التعايش معه كأنه من روتين الحياة، و ما هو من روتين الحياة.

إن أول ما ينتابك و أنت تهم بقراءة << سوناتا لأشباح القدس>> رؤية مضببة لمعاني النص و رمزية مغرقة تكتنف الأحداث وصيرورتها أمر يجذبك ويستفز فضولك، إذ يأبى النص المشفر أن يمنحك مفاتيحه في بداية تعرفك به.....ثم رويدا رويدا ، ينفتح ( النص) على ضرب من التأويل المستمر، فتعجز مرة أخرى على تحديد أي الوجهات تختار فأنت أمام * ثنائيات متناقضة لا يجمع بينها التنافر بقدر ما تتعانق في تآلف منسجم و منطقي.....الموت و الحياة ، الألم و الفرح، الوطن والاغتراب، الحب و الكراهية، و.....

* و أمام نص ملون أشبه بقصيدة مفخخة كلماتها نوتات سنفونية جنائزية، ترقص على أنغامها فراشات تائهة بلا وطن، و المعاني متعددة و لا حصر لها.

و أمام أهم قضية من قضايا الوجود، القضية التي تصنع ماهية الإنسان ، فتمنحه الحق في الموت...فكلاهما "حق" و حتى ما تنازلنا طواعية عن أحدهما .....تنازلنا كرها عن الثاني و تتماهى حقوق الحياة و الموت في سوناتا لأشباح القدس في حقوق عديدة لخصها النص في :

- حق انتماء لا تمنحه شهادة ميلاد أو شهادة إقامة.
- حق الرجوع إلى الوطن، رجوع طبيعي إرادي لا تملك القنصليات أو السفارات قرار منعه أو تأجيله.
- حق في الحب، غير المشروط و غير المرتبط بعلاقات الصداقة أربا العلاقات الأسرية.

و بالإضافة إلى كل هذا ، استطاع واسيني تطويع لغة الفن حتى تصبح ، لغة روائية << تحي عبر هذه القدرة على التمدد و أن تتحدث عن نفسها، و أن تضع يدها على مكان الجرح و مكان الداء>> بل عن إطلاع واسيني الكبير على أبجديات بعض الفنون و معرفته لأهم أسرارها و التي لا يجيد معرفتها إلا المحترفين، حول

النص الروائي إلى مرجع فني هام قد يصنف مستقبلا ضمن الكتابات " الأدب– فنية" و لواسيني قسم السبق في ذلك.

إن " سوناتا لأشباح القدس" تذكرة عبور واسيني إلى دنيا الألوان و الفراشى ليبوح بالمعلن و المسكوت عنه حينما تمحى الفواصل بين الأحلام و خيبات الأمل ، كما أن الألوان في " سوناتا لأشباح القدس" عالم آخر تعيشه البطلة و تحقق من خلاله كل الممنوعات و المكبوتات و كذا كل الأحلام المستحيلة ، عالم مثقل بالرمز و الإيحاء، تشكله كيفما شاءت فقد يكون اللون ذاته مدعاة للفرح و التفاؤل تارة و مبعث حزن و ألم تارة أخرى....

إن الألوان في " سوناتا لأشباح القدس" تتحدث لغتها الخاصة و تمرر عبرها آلاف الرسائل ذات الشفرات القابلة للتفكيك ، ليس بطريقة واحدة ، بل بطرائق متعددة.

إن الألوان في " سوناتا لأشباح القدس" شيء أكبر من الغرور و الثقة بالنفس، فحين بدأت "مي" في تسليم جسدها للموت بعد حياة حافلة لم تظهر ضعفها أو خوفها ، آمنت بصدق أنه قدرها و هي سائرة إليه لا محال....هكذا اعتقدت "مي" وهكذا صورها " واسيني" امرأة غير عادية ، بل كائنا غير عادي.....لا يخاف الموت و هو يسحبه ببطء إلى النهاية ...نهاية كل شيء....الأفراح و الأحلام ، حتى الأحزان و الكوابيس، بل وهي تتملص من دنيا البشر لتتحول على فراشة قدسية لا تعرف الموت و لا تتعب من انتظاره ....لذا فلون "مي" لا تشبه أي ألوان أخرى .....لون ذا طعم و رائحة.....و فلسفة لونها الأول الذي يندمج مع إشعاعات الشمس و هي تنهض من وراء بحيرة هود سون ، أو يدخل في تجاويف سماء تبحث عن فضائها و ألوانها ، أو يغرق في عمق زرقة الماء ثم يعود على السطح في شكل صفاء مشع كبقعة زيتية ، لونها الذي لم تخل منه أي لوحة من لوحاتها في العمق(3).

فهي لم تمت ، و لكنها انتفت داخل الألوان التي اشتهتها (3) إنه العالم البديل فعندما يكون البقاء بعيدا عن نور الشمس مرادفا للحياة ....يصعب تحديد ماهية الموت...لذا كان لابد من عالم بدائي بديل ن عالم السحر و الخرافة، عالم تسمو فيه الروح ويصبح الجسد فيه مجرد وعاء....

عالم صنعه لا وعي واسيني و سكنته "مي" بل غرقت فيه، ولم تبق لها من حياة " إلا داخل ألوانها حتى أصبحت جزءا منها"(4).

ألوانها التي تعد ملكيتها الخاصة و لا يمكن لأحد أن يراها أو يتذوقها أو يسمعها مثل ما تفعل هي لتتحول العلاقة الحميمية بين مي و ألوانها إلى طقس فلسفي تستمتع بآلامه و أفراحه على السواء ...كاللون الأصفر مثلا الذي احتل مساحة كبيرة من لوحاتها...

الوجه المريض المتعب الأصفر ، الظل الأصفر ، باصات بروكلين الصفراء..."فنجده مرة لونا مقيتا يذكرها بالموت و الغناء" ...وجهي الذي كان كل يوم يزداد صفرة و تصلبا"( 5) كما نجده مرات عديدة لونا عزيزا يصحو بعد غفوة طويلة ، لبعيد تركيب بعض صور طفولة مي، في الذاكرة البعيدة...و تحكي مي عن تلك اللحظات قائلة "قبل أن أمد رأسي على الوسادة و أطفىء الأضواء ، برق نور في عيني لأول مرة منذ سنوات طويلة، و تمدد كالظل الأصفر على اللوحة التي ظلت بيضاء طوال اليوم"(6).

<< قمت من فراشي و ملأت الفرشاة بالون الأصفر و تركته يتمدد بهدوء كقطرة حبر ، وهذه المرة بدأت اللوحة من الوسط و ليس من فوق كما تعودت أن أفعل ، بدأت فجأة باصات بروكلين الصفراء تملأ اللوحة ضجيجا و حياة ، سمعت زمامرها و هي تصم الآذان بمتعة أصبحت اليوم مفقودة>> ( 7) من أجل هذه تبقى مي ممتنة

لهذا اللون– الذي تعتبره العامة لون المرض و الغيرة – و تحتفل به لأنه لون سكن ذاكرتها وارتبط بلحظات عزيزة على نفسها.

فنستدعيه في حالات اليأس و الشعور بالاغتراب ، و يلبي و يعود ، و بعودته يخف الألم و تصحو الطفولة و ضجيجها الجميل....

وبهذا يمرر لنا واسيني، إلينا كلنا نحن اللذين " نعيش في عالم لم يعد يحفل كثيرا بآلامنا" ( 8) لنحتمي بالذاكرة لعلنا نجد العزاء في قدرة وسيلته في ذلك "اللون" و كل ما قد يحيل إليه في ذاكرة مي، التي يتساوى عندها اللونان " الأسود و الأبيض" في إيحاءاتهما، فلقد كان اللون الأسود علامة بارزة في ألواحها، لون عبرت من خلاله عن يأسها من الحياة ، و أن المرض الذي تعايشته و الذي ينخرها من الداخل نهايته الموت، لهذا نجد مي في لآخر لحظاتها ، تغمض عينيها لكي لا ترى الألوان، التي بدأت تتداخل بقوة و تسود أكثر فأكثر"(9).

كما نجدها جردت اللون الأبيض من كل رموز البراءة و الطهر و السلام التي لازمته في كل الثقافات لتتذكره كلون هارب، لون للموت و العمى و الفراغ الساكن الذي يملأ اللوحة قبل أن تدب فيها روح الألوان ، جنائزي يرتبط دوما بالذاكرة الحزينة و أكفان "عليان" ذلك البياض الذي يشبه العتمة ، حاد و معم للنظر، أشعر به الآن بقوة.

بياض يمحو كل نتوءات الحياة و التفاصيل الزائدة و لا يبقي إلا ما يهرب من لمعانه المبهر"( 10) كيف قرأ واسيني الألوان ؟ كيف كتبها لنا؟ كيف أمكن له أن يوقظ فينا الإحساس بالألم ...بالذنب...بثقل الانتماء؟ دون أن يورط قلمه أو ريشة "مي" في البوح بالمحظور...بل راح يعي التئام بعض الجروح ، و أن المنفى قد يمنحنا ما لم تمنحه لنا أوطاننا الأولى و أنه قد يحرر أحلامنا و يشفي جراحنا ...و أنه لا بأس من سياسة التعايش السلمي مع اليهود و لا يضر من البحث عن بعض ميزاتهم الجميلة النادرة و أنه من غير الصادر الاعتذار عن المحرق التي ذهب ضحيتها "يهودا أبرياء" (11).

لكن حتى إذا ما توغلنا عميقا في النص ، و انغمسنا بالألوان وجدنا أنفسنا أمام أهم جراحنا، و محور كل أوجاعنا وسواء قصد واسيني أم لم يقصد ، فلقد آلمنا النص حتى الموت...

و لنا أن تعترف للمبدع أنه تفنن في إيجاد تقنيات بارعة في مزج الأحزان عفوا مزج الألوان ، فلقد استطاع و بشكل خفي ، من خلال "مي" أن يستمتع بحديث الألوان وهي تتشاكل و تتعانق، دون فوضى أو تنافر كأنها في حالة صلاة، تتلو الصدق، و تفشي بعض أسرارها...دون أن تدري...

حين يتحدث واسيني عن آخر لوحات مي" نيويورك ، هسهسة الأوراق الميتة " فهو يقول كل شيء عن حياة "مي" و مرضها و خوفها و شجاعتها... و أن ما هي إلا دواتنا المتغربة الباحثة دوما و عبثا عن مرا في ء لتشريح ،...تهوى الفرار بقدر ما تحن بجنون إلى الرجوع؟

يختار و بدقة موضوع اللوحة ، ألوانها أشكالها، حتى الوقت الذي رسمت فيه، أجمل لمسة أخيرة في حياتها أو أحلاها و أن تستطيع من خلالها أن تمنح بعض السعادة للعيون التي ترتاح لألوانها ...( 12) لكن، على العكس من ذلك، كانت "نيويورك، هسهسة الأوراق الميتة " لوحة حزينة ، تصيح بصوت النحيب، و تغمرها العبرات كلما تكسرت ألوانها وامتزج بعضها ببعض، حيث : " يختلط اللون الأصفر بالأحمر الذابل، على أرضية يغلب عليها الأزرق الرمادي، شكل يقترب من بحر فارغ، لا تكسر عزلته إلا البياضات الهاربة لموجات صغيرة تكاد لا ترى ، كانت تتكسر على أطرافه.

تخرج من عمق ظلال تمثال الحرية و معابر إليس آيلند الحديدة الباردة ، و هي تستقبل أشباحا تبحث عن أمكنتها في نيويورك ، الضباب الكثيف الصاعد من الحواف الإسمنتية العديدة، في خلفية اللوحة ، و الميناء الثقيل، لم يمنعها الشمس من أن تظل مشرقة و تعكس إشعاعاتها على الرافعات القديمة .(13)

فماذا تخفي مي وراء هذه الثنائيات المفزعة، وهذا التقابل الكئيب للألوان؟ ، الأحمر الذابل، الأزرق الرمادي، البياضات الهاربة، الضباب الكثيف، .....وماذا أوحت لها هذه البناءات الضخمة التي تعد علامات هندسية مميزة لمدينة نيويورك؟....تمثال الحرية، معابد إليس آيلند الحديدية الباردة، الحواف الإسمنتية العديدة، الميناء الثقيل؟.....

ما حقيقة هذه الصورة؟ و كيف أمكن لمي أن تقدم نيويورك المدينة التي احتضنتها بهذا الشكل الحزين، و ما سر الشمس المشرقة في خلفية اللوحة؟ بل من هي؟ و ما علاقة الهسهسة (صوت خريري المياه أو زقزقة العصافير) بالأوراق الميتة، في الاسم الذي اختارته مي للوحتها؟

وتتصاعد حيرتنا وتساؤلاتنا في موضع آخر لمزج الألوان ، حيث تذكر مي في آخر معرض لها، أنها لم ترسم لوحة لأبيها و هذا شيء "لا يمكن أغمض عيني و أمضي و كأنها لم تكن ؟ لا أدري ، و لكني أشعر بحزن عميق ، بل أشعر بأن المعرض سيكون ناقصا من شيء مهم."(14)

غير أن مي حين شرعت في رسم لوحتها، استحضرت كل مشاعر الغضب و اللاغفران و أسمتها بكل قسوة وبدون أدنى إحساس بالتراجع "وجه مكسور بالأسود و الأحمر" حيث جمعت بين الانكسار و ألوان هي أقرب إلى الموت و الحزن...رسمتها بالجمع بين لوحتين <<ثم نوعت بين الأحمر و الأسود بتدرجات بينت الملامح المنكسرة أكثر، حتى ظهرت حالة الخيبة التي كانت تقطر من العيون المنفصلة في اللوحتين.>>(15)

إن واسيني يدرك أن "مي" لم تنس رسم لوحة لأبيها، فهي أبدا لم تنس أنه كان سببا في هجرتها إلى بلد غير بلدها الأول، و لم تنس أنه أخفى عنها موت أنها و أخيها، و لم تنس خيانته لأمها..إنما كان لا بد من لحظة تفجر فيها "مي" بعض غضبها، و أكاد أقرأ بين السطور أن حضور الأب بكل ثقل العواطف المشحونة ضده كان رمزا و إيحاء للغضب الذي تحمله الشعوب نحو كل اللذين يملكون اتخاذ القرار.....فيتخذونه و يخطئون....و تضل الشعوب وراءهم كالقطيع.

و كما رأى الدكتور تحريشي أن نص "حارسة الظلال" هو << نص ذاكرة و نص عن الذاكرة و نص يتذكر ، و نص يأبى أن يتحول إلى ذاكرة إنه الحضور الذي ينافي الغياب>>(16)

نرى بدورنا أن "سوناتا لأشباح القدس" هو نص الذاكرة العربية الذاكرة التي تقتات من الارتداد إلى ماض جميل غابر كلما قض مضجعها توالي النكبات ...و كما أن الكتابة السردية عند

واسيني " تتميز بين كتابة القهر و الكتابة عن القهر و بين كتابة مقهورة و كتابة تمارس القهر، و من ثم قد تصبح كتابة تقصي بعض الوجود، و كتابة تمارس الإقصاء، و بين كتابة يمارس عليها الإقصاء ، و بين كتابة هي إنتاج اقتصاد و كتابة عن الإقصاء و الإلغاء" (17)

فنتفاجأ في " سوناتا لأشباح القدس" بأنها كتابة رافضة للقهر تماما ، نص يعتبر ارتدادا للذاكرة المتعبة أي نعم متألم من توالي النكبات ، أي و مع ذلك فلقد كتب واسيني هذه النص ليقصي الإقصاء و يلغي الإلغاء ....نوع من الكتابة المراوغة ، فحين لا يقول المبدع شيئا ، يقول النص كل شيء...إذ يراهن واسيني على اللون ، و يراهن النص على القوة الخامدة ليوقظها، قوة "مي" في مواجهة الموت، قوة "يوبا" في مواجهة رحيل أمه، و"مي" ما أمكن

مواجهة الموت وهو أكبر مخاوفنا ، أصبح الإقصاء أو الإلغاء أمران من الماضي ... و تتحول الذاكرة << إلى محفظة صغيرة مثل تلك التي كنت أحملها معين كلما توغلت داخلها، أسعفتني في إيجاد ما أبحث عنه ...>>(18)

و إن كنا قبلا قد اعترفنا للمبدع بقدرته على مزج الألوان بالأحزان، فقلد بدع أيضا في جعلنا نبتسم أحيانا ليروح عنا و يبعث فينا أملا قد لا يكون مستحيلا ... إذ احتفل واسيني بالألوان أيما احتفال ، و صور لنا ببراعة شغف مي بها مستغلا في ذلك لغة فنية احترافية اختصر من خلالها ما كان يمكن أن يقال في عشرات العبارات السردية، لتتناثر كلمات النص فراشات ملونة تهمس بتحويذة الإصرار على البقاء.

فما هي فراشات القدس التي تكرر ذكرها في النص ؟ و ما هو مصدر البهجة التي أدخلتها إلى عالم مي ليشرف رغم رائحة الموت و الفناء، لتصبح فراشات القدس لونها الأول و الخاص بها دون سواها، و إن لم تتعاف مي من مرضها رغم جهود الأطباء فلقد ألهمتها فراشات القدس، و علمتها كيف تتعافى من الشعور أن الموت هو النهاية فكلما خرجت مي من العلاج الكيماوي ، و دخلت في حالة من اللاوعي الألم و رأت نفسها في ما يشبه الحلم في لحظات الصخور النادرة << ...على أجنحة فراشات القدس، في أقصى درجات النعومة و العذوبة ، أعبر بلا خوف و لا أسئلة ، الحقول المكتظة بالنباتات الكثيرة و المتوحشة ، بعضها أعرف اسمه و البعض الآخر لا علم لي به لأني أراه للمرة الأولى في حياتي ، عرس من الألوان التي تخترقها الأنوار التي تأتي من كل الجهات >> (19)

و يفلح واسيني في أن يواسينا، و يبعث بعض النور في خلفية لوحة قاتمة الألوان .....

إن فكرة الحياة عند واسيني تتعدى مفهومها البيولوجي و كلما قرأنا و أعدنا قراءة نص "السوناتا" يتضح لنا الحياة "موهبة" ليست متاحة للكثير من البشر في حين قد تطال بعض الأشياء الجامدة التي تحفز هذه الموهبة و تخرجها للوجود ، لندرك و نتعلم و نحن نقرأ النص أن هذه الأشياء الجامدة من حولنا هي التي تمنح لحياتنا معنى .... و لولاها سنفقد "موهبة الحياة".

إن " الكراسة النيلية " عالم "مي" المتحرك ، النشط المفعم بالأسرار " الكراسة النيلية " مدونة الحداد ، كراسة مي السحرية ، بطلة رواية " سوناتا لأشباح القدس"

إنها تماما كما اعترفت "مي" أكثر من مجرد كراسة صغيرة و عادية (20) لا يميزها شيء

<< حتى صورتها على الغلاف لا تثير أي انتباه ، شاب و شابة يقطعان الطريق ، أحدهما يقبض على يد الآخر مع ابتسامة عارية و عريضة ، و راءهما تشرق شمس رسمت بشكل بليد مدورة ، وتضحك بغباوة واضحة ، و من الجهة الثانية جدول الضرب من واحد إلى عشرة (21)

ما الذي شذ "مي" إلى هذه الكراسة؟ و ما الذي دعاها لأن تصادقها ، و تحبها، و تحافظ عليها عذراء، و لا تكتب عليها إلا حين تحتاج أن تقاوم شبح الموت؟ ما الذي يثيره هذا اللون المركب، الأزرق الضارب إلى البنفسجي في نفس "مي" لتراه لونا استثنائيا لكراسة استثنائية يثير فيها أحيانا ذكريات طفولتها الجميلة و يذكرها أحيانا أخرى بالموت الموت الذي " صار أليفا و لم يعد مثيرا" ( 22) لهذا لم يعد غريبا أن نعترف بعلو أصواتنا .... كم هي موهبة هذه "مي" التي انبهر بها واسيني و أجبرنا بدوره على الانبهار بها و كم هو جميل و موحي عالم الألوان الذي امتزجت به حياة مي لتتكسر على حوافه كل معوقات النجاح و الانطلاق.

الإحالات

(2) سوناتا لأشباح القدس ص 841.
(3) سوناتا لأشباح القدس ص9.
(4) سوناتا لأشباح القدس ص 556.
(5) سوناتا لأشباح القدس ص 481.
(6) سوناتا لأشباح القدس ص 279.
(7) سوناتا لأشباح القدس ص 280/279.
(8) سوناتا لأشباح القدس ص 115.
(9) سوناتا لأشباح القدس ص 513.
(10) سوناتا لأشباح القدس ص 155.
(11) سوناتا لأشباح القدس ص 93.
(12) سوناتا لأشباح القدس ص 116.
(13) سوناتا لأشباح القدس ص 117.
(14) سوناتا لأشباح القدس ص 500.
(15) سوناتا لأشباح القدس ص 501.
(16) المستويات اللغوية ...محمد تحريشي 43.
(17) المرجع نفسه تحريشي 43.
(18) سوناتا لأشباح القدس ص 513.
(19) سوناتا لأشباح القدس ص 448.
(20) سوناتا لأشباح القدس ص 184.
(21) سوناتا لأشباح القدس ص 186/185.
(22) سوناتا لأشباح القدس ص 187.